مكافحة الحفاء في الريف

للدكتور أحمد حسين
مدير إدارة الفلاح بوزارة الشؤون الاجتماعية

يشغل مشروع مقاومة الحفاء جانبا عظيما من اهتمام الحكومة والرأى العام وتبذل فى سبيله الجهود والأموال، ومع ذلك فإن هذا المشروع لم يحرم من نصيبه من النقد والتشكيك فى مبلغ فائدته ومدى ما ينتظر له من نجاح. وشأنه فى ذلك شأن كل مشروع إصلاحى جديد، فقد صادف تعميم التعليم من ينادى بخطره على الفلاح. وكذلك وجدت فكرة نشر المستشفيات من يقول بعدم جدواها وذهاب تكاليفها هباء ما دام الفلاح معرضا للعدوى على الدوام.

وهذا مشروع مقاومة الحفاء ينال حظه — كما قلنا — من ملاحظات الناقدين. فمن منادٍ: الغذاء قبل الحذاء، ومن قائل املأوا بطن الفلاح أولا وأصلحوا بالدواء جسمه و بالعلم عقله قبل أن تصلحوا بالحذاء قدميه.

ومن متسائل: هل الحذاء هو كل ما ينقص الفلاح أو أهم ما ينقصه؟ وهل إذا وزعت على الفلاحين النعال يحتفظون بها أم يبيعونها؟ وهل نضمن أن يواظبوا عليها حتى عند نزولهم فى الحقل بما فيه من ماء وطين؟

وإذا أعطينا للفلاح نعلا فى المرة الأولى فمن أين له ثمنه فى المرة الثانية؟

وهل الحفاء والانتعال إلا مظهر يجب أن تقدم عليه الجوهر؟

وجوابا على هذ كله نقول: إن مشروع مقاومة الحفاء لم يقصد به أن يكون هو الناحية الوحيدة التى تنصب عليها الجهود، أو الإصلاح الشامل الذى لانحتاج بعده إلى إصلاح. و إنما أريد بالمشروع علاج ناحية واضحة من نواحى النقص فى حياة أفراد الشعب وتلافى عيب جارح لكرامتهم.

ربما كان الناقدون على حق لو كان الاهتمام بالفلاح مقصورا على مقاومة الحفاء لكن الواقع أن النهضة الإصلاحية تبدو فى جميع النواحى، فهناك المراكز الاجتماعية التى تنشأ والمدارس والمستشفيات والمغاسل والحمامات التى تبنى، والجمعيات التعاونية التى تؤسس. وقد جاءت ناحية مقاومة الحفاء فسدت نقصا فى برنامج الإصلاح كان لابد من الانتباه اليه إلا أنه مع الأسف قد أغفل أمدا طويلا حتى ظفر بلفتة كريمة من جلالة الملك المصلح فاستجابت البلاد لندائه الكريم واقتدت بسخائه فلم تبخل بجهد ولا مال.

ونحن من أول المؤمنين بأن الاصلاح المثمر لابد أن يشمل كافة النواحى فى وقت واحد لأنه لا خير فى علاج داء دون بقية الادواء . إذ كل منها يؤثر فى الآخر ويتأثر به . فالمرض يعجز صاحبه عن العمل فيؤدى إلى الفقر ، والفقر يعجز صاحبه عن توفير وسائل الوقاية أو العلاج لنفسه وهكذا . . . وقد شرحنا هذا التأثير المتبادل فى كلمات سابقة ، واذا كان الأمر كذلك فلا محل لوضع ترتيب عددى لعمليات الاصلاح أو لقصر جهدنا على الأولى منها دون البقية ، ما دامت كلها مترابطة متماسكة ، بدليل أنه لما اهتمت البلاد بمقاومة الحفاء أثار ذلك فى الحال موضوع الزى عامة ، واخذت الجهود تبذل فى وزارة الشؤون الاجتماعية لوضع مشروع شامل لتهذيب الزى وتوحيده . كما أنه لما رئى أن يبدأ فى مقاومة الحفاء بتلاميذ المدارس الالزامية فى المدن توجه النظر فى الوقت عينه الى سد مختلف مطالبهم فينال موضوع تغذيتهم ما يستحقه من العناية التى تبشر بسد هذا النقص الخطير فى الجيل الناشئ وهكذا وجد الاهتمام بالغذاء والحفاء معا .

واذا كان موضوع هذه الكلمة هو " الحفاء فى الريف " وقد أرجئ تنفيذ المشروع فى الريف الى ما بعد المدن فإنا لانذكر أن المهمة فى الريف أدق وأشق منها فى المدينة . وذلك راجع الى كثرة عدد الحفاة فى الأرياف ، والى تبعثرهم فى القرى والحقول ، ثم الى طبيعة عملهم وما تقتضى من خوض فى الطين والماء . وقبل ذلك كله هبوط مستوى الأجور بحيث يعجزهم عن ثمن الحذاء .

وعندى أن الفقر هو أهم هذه العقبات ، لأن المشاهد أن أى فلاح بسيط تتحسن حالته بانتقاله من أجير الى خولى يتقاضى مائة وخمسين قرشا فى الشهر لا يلبث أن يبادر الى شراء مركوب يق به قدميه ويستوفى به المظهر اللائق . ومعنى هذا أنه لو وفقت وزارة الشؤون الاجتماعية الى تحقيق ما وضعته من البرامج لزيادة دخل الفلاح بواسطة المراكز الاجتماعية وغيرها لكان هذا أحسن معين على القضاء على الحفاء وغيره من آثار الفقراء .

ومع ذلك فلسنا ننوى أن نلبس الفلاحين كما يتبادر إلى ذهن البعض — أحذية فاخرة من روبرت هيوز أو راءول — بل كل ما نريده نعل بسيطة تكفى لوقاية قدميه وتكون حائلا دون وصول الامراض المتوطنة إلى جسمه . نريد مجرد نعل معلقة فى القدم من النوع الذى يسميه الفلاحون " حدوة " والذى يلبسه الاعراب و بعض القسس والذى كان يلبسه المصريون والرومان القدماء . ونحن نرى أن هذه الحدوة فعلا فى أقدام كثيرين من الفلاحين مقطوعة من جلد ثور أو جمل ومدبوغة محليا ولا تتجاوز تكاليفها اكثر من قرشين أو ثلاثة .

ولكى يطمئن الخائفون من طين الحقل ومائه نذكر لهم أن المزارع فى الممالك الأوروبية الراقية كانجلترا وفرنسا وغيرهما فيها كما عندنا طين وماء وفلاحون يؤدون كل ما تتطلبه الزراعة من عمل وهم متعلون .

ولا يخافن أحد من بيع الفلاح لنعله ، لأننا كما أسلفنا لن نعطيه إياها من النوع الممتاز الذى يمكن أن يجعل لها ثمنا يغرى ولن نعطيه إياها مجانا لأن ذلك يتنافى مع المبادئ الأساسية للخدمة الاجتماعية السليمة ، بل ستساعد الحكومة على تقليل نفقات انتاجها وتساهم فى تكاليفها لتخفيض ثمن بيعها بحيث لا يرتفع إلى أكثر من قرش أو قرشين ، والمفروض أن هذه النعل تعيش عاما أو نصف عام فما أيسر شراء غيرها على الفلاح مهما كان فقيرا ، وكذلك فإن من أسس المشروع ضمان الاستمرار فيه بحيث يتعود الشخص لبس النعل وتصبح عنده ضرورة لا يستطيع الاستغناء عنها فإن طفل المدرسة الالزامية الذى يظل منتعلا خمس سنوات وكذلك الفلاح الذى يتعود النعل طويلا كلاهما تلين قدمه و يرتفع مستوى احساسه بكرامته فلا يمكن ان يحنى بعد ذلك .

ولعلنا قد أفلحنا فى الرد على ما يثيره المعترضون بحيث لا يكون الاعتراض بعد ذلك إلا تثبيطا للهمم أو مجرد رغبة فى النقد كشأن كثيرين من الهدامين .

وعلى أية حال فليس هناك من يزعم أن فى المشروع ضررا محتملا ، أو ينكر فائدته . وما من مصرى إلا و يملأ نفسه السرور حين لا يرى على أرض وطنه قدما حافية . وكل ما هناك أن بيننا من يقول بتقديم اصلاح على اصلاح . وهـذا وذاك ضرورى لا غنى عنه ، ولقد سعد مشروع مقاومة الحفاء بعناية عالية من مليك البلاد ومن رعاياه فى حين لم تحرم بقية نواحى الاصلاح من هذه العناية — خصوصا ما كان متصلا بحياة الفلاح — فجمعت الأموال ودخل المشروع فى دور التنفيـذ السريع . ومهما كان رأينا فى الترتيب فإن من الواجب أن نتضافر على انجاز المشروع و إنجاحه مادمنا جميعا مقتنعين بأنه ضرورى ومفيد .

والآن ، ما الذى يكسبه الفلاح والبلاد من المشروع اذا نفذ وعم وشمـل ملايين الفلاحين .

يقدر كبار أطبائنا عدد المصابين بمرض الانكلستوما فى مصر بحوالى ٥٠ ٪ من السكان وتصل الإصابة الى الجسم عن طريق القدم العارية فان "يرقات" هذا المرض القتال تكمن فى الأرض الرطبة الملوثة بفضلات الانسان — والفلاحون فى العادة يتخذون بقاعا وأكواما معينة لقضاء الحاجة — فيجتذب دفء القدم هذه "اليرقات" وتتسلل الى لدم من المواضع اللينة كالشقوق وما بين الأصابع ثم تصل هـذه الجراثيم بواسـطة الدم الى القلب ثم الرئة حيث تخترقها فيسعلها المصاب الى حلقه ثم تنتهى الى المعـدة والأمعاء حيث يتم نضوجها فتكون هى ديدن الانكلستوما التى تنشب خطافاتها فى الأمعاء وتمتص الدم والغذاء ، وتفرز سمها المعروف الذى يهدم البدن و يؤخر نموه كما يؤخر النمو العقلى .

و يقدر هؤلاء العلماء أن الفلاح الفقير لو نجا من شركائه الخطرين فى غذائه الضئيل — ونعنى بهؤلاء الشركاء الطفيليين — الانكلستوما والبلهارسيا والديدان المعوية — لاستفاد بغذائه البسيط أكمل استفادة، ونجا من كثير من الأمراض التى تنشأ عن نقص التغذية .

فمهما أنفقنا من المال فى تعميم النعال التى تمنع تفشى هذا المرض الخبيث قليس ذلك بعشر معشار ما نخسره من صحة الشعب ومن قدرته الجسمية والعقلية . وهو يجاب ذلك أقل بكثير مما ننفقه الآن لمعالجة هذا المرض الوبيل .

فالمشروع يضمن لنا مكافحة أحد المرضين الخطيرين الذين يهددان كيان الفلاحين وأعنى بهما الانكلستوما والبلهارسيا .

والنعل بعد ذلك تحمى القدم من الجروح التى قد تسبب الالتهابات أو العدوى بالأمراض الخطيرة كالتيتانوس أو الحمرة بجانب وقايتها للقدم من القدارة أو لدغ الحشرات .

وهناك ناحية الكرامة الشخصية والقومية . فان الحفاء يشعر صاحبه بصغر شأنه وضآلة قدره كما أنه عنوان سيئ للشعب ومظهر لهبوط مستواه .

وعدا هذا فإن المشروع سيفتح الباب للانتفاع بمادة خامة هى الجلود تعودنا أن نصدرها الى الخارج بثمن بخس لتستخدمها المصانع الاجنبية وتربح من ورائها . وكذلك سيفتح باب واسع للعمل والرزق أمام عدد عظيم من العمال المصريين عن طريق تضاعف الطلب على الأحذية والنعال .

ولا شك أن الشعب حين يصبح الحذاء من ضروراته يكون معنى هذا أن مستوى حياته قد أخذ يرتفع . فمستوى حياة شعب ما يقاس بمدى التدرج فى لوازمه التى يشعر بضرورتها له ويسعى لتوفيرها .

فزنجى المجاهل لا تزيد حاجته على الضرورى من الغذاء، فما هو بحاجة إلى جد أو عمل فى سبيل الدخل مادام ليست له مطالب .

على حين أن الفلاح الأمريكى البسيط قد يكون الراديو والسيارة من ضروراته فلا بد له من الكد لتوفير ماتحتاج اليه هذه المطالب . وهذا هو الفارق بين مستوى ومستوى ، أى أنه كلما تهذب الشعب وكثر مايشعر بالحاجة اليه ازداد نشاطا ورقيا .

وأملى وطيد بعد ذلك ألا يمر طويل وقت حتى نرى شعبنا الكريم قد برئ من داء الحفاء ووصمته وتوافر له كل ما ينقصه واكتملت له أسباب التقدم والنهوض ؛

أحمد حسين